كلية الآداب والفنون

قسم الفنون

السنة أولى جذع مشترك فنون/ السداسي الثاني

مقياس: السينما الناطقة

المحاضرة رقم 07 بعنوان:

" الفيلم الوثائقي في السينما الناطقة"

يتعارض الفيلم الوثائقي التسجيلي مع الفيلم الروائي من حيث التعريف، فمن المألوف القول إن الخط الفاصل بينهما فرض نفسه منذ الأيام الأولى لوجود السينماتوغراف: فرع وثائقي مع أفلام الإخوة لوميير، وفرع خيالي أو روائي مع أفلام المخرج جورج ميلييس، وبالتالي فقد تطور الفيلم الوثائقي التسجيلي تبعا لمعايير تقنية واقتصادية وجمالية وأيديولوجية، فهو يمدّ المشاهد بالمعلومات عن المُصوِّر بقدر ما يعلّمه عمّا يُصوِّره وبشكل غير مباشر، كما يعرّفه أيضا بالتوجّه الذي ينتمي إليه.

لقد كان للأزمة الاقتصادية في فترة الثلاثينيات، وقدوم الصوت المتزامن مع الصورة، تأثير بالغ على ممارسات الفيلم التسجيلي، إذ نجد أن الجماليات الحديثة التي تميزت بها الأفلام التسجيلية في العشرينيات قد أفسحت الطريق للتأكيد على الاهتمامات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث تُعدّ المسيرة العملية للمخرج الهولندي يورس إيفنز رمزا للتغيير، فقد بدأ في العشرينيات بصناعة أفلام تسجيلية قصيرة ذات طابع

جمالي، قبل أن تتحول أعماله إلى أعمال ملتزمة سياسيا، مثل إخراجه لفيلم "Borinage" سنة 1933، الذي يهتم بالظروف المعيشية التي يعيشها عمال المناجم في بلجيكا، بينما اعتُبرت الأفلام التسجيلية في فترة الثلاثينيات أفلاما ذات طابع سياسي، وذلك في كل من دول أوروبا واليابان، ثم أصبح هذا التوجه مرتبطا خلال الحرب العالمية الثانية، حيث لعب الفيلم التسجيلي دورا دعائيا بين طرفي الصراع، وسرعان ما وصل الفيلم التسجيلي في فترة الثلاثينيات والأربعينيات إلى الجماهير وأثّر فيها لأغراض تتجاوز التسلية والفن.

لعل ما يميز ظهور الفيلم التسجيلي اعتماده على أحد الأنواع الأكثر رواجا، وهو "فيلم الاستكشاف" و"فيلم الرحلة" أو "أفلام الرحلات" في فترة الثلاثينيات، فنجد فيلم المخرج "مارك أليغريه" وفيلمه "الرحلة إلى الكونغو" سنة 1927، ومن أشهر الأفلام في هذا السياق أيضا فيلم "مع بيرد في القطب الجنوبي" سنة 1930، وهو يعنى برحلة الاستكشاف والحياة في القطب الجنوبي، كما أخرج كلٌّ من "مارتن وأوسا جونسون" فيلم "Congorilla"سنة 1932، وهو فيلم يُعنى برحلة بحث عن مناظر في منطقة الزائير (الكونغو)، وتصوير أقزام الكونغو البلجيكية.

كما أبدع المخرجون في أفلام الرحلات بإضافة عالم السياحة إلى الفيلم التسجيلي، وذلك باكتشاف عادات وتقاليد المجتمع الإفريقي، فضلا عن ذلك أخرج "مارتن جونسون" فيلم "المركبة الصفراء" سنة 1934، باعتباره فيلما دعائيا يهدف إلى تسليط الضوء على تكنولوجيا سيارة ستروين.

بينما يُعدّ الفيلم الإثنوغرافي فيلما يعكس البعد الجمالي والفني للأفلام التسجيلية آنذاك، فقد ابتعد مخرجو هذا التوجه عن المحاضرة المصوّرة، منطلقين إلى الفيلم القصصي متزامن الصوت، باعتباره النموذج الأصح والأصيل، ونجد ذلك جليا في أعمال كلّ من الأنثروبولوجيين "كلود راسموسن" و"فردريك دالشايم"، وفيلمهما "زواج بالو" سنة 1934 (تم تصويره في منطقة غرينلاند الشرقية مع استخدام حوار الإنويت)، كما أخرج المخرج الأمريكي "روبرت فلاهرتي" فيلم "إنسان آران (Man of Aran) "سنة 1934، الذي يشخّص الواقع الذي يعيش فيه سكان جزيرة آران قرب سواحل إيرلندا.

أما السينما السوفياتية فتمثلت من خلال نظريات المونتاج، وأعمال المخرجة "إستير شوب"، انطلاقا من المونتاج الشكلاني، وعلى الأخص المونتاج الأيديولوجي، وفيلمها "سقوط أسرة رومانوف" سنة 1927، إضافة إلى أعمال المخرج السوفياتي دزيغا فيرتوف وفيلمه "الرجل والكاميرا."

كما عُني الفيلم القصير ذو الصبغة الوثائقية، من خلال التجارب الطليعية في العشرينيات والثلاثينيات، باكتشاف المدن الكبيرة بأسلوب شاعري وممارسة رائجة، فقد أخرج "تشارلز شيلر" و"بول ستراند" في نيويورك فيلم "Manhatta" سنة 1921، وفيلم "روتمان" "برلين: سيمفونية مدينة عظيمة"، كما أخرج يورس إيفنز فيلم "De Brug" سنة 1928، من خلال تصويره العديد من أفلام سيمفونيات المدن.

بينما يؤسس الفيلم الوثائقي فرضيات أساسية يفترضها مشاهدو هذا الجنس السينمائي، وهي:

1. يجب ألّا تكون الأحداث المصوَّرة مُعدّة لهذا الغرض، أي إن الأحداث يجب أن تحدث بشكل مستقل عن عملية تصويرها، وعلى خلاف ذلك، في الأفلام الروائية تُهيَّأ الأحداث تحديدا من أجل تصويرها، لذلك فإن طبيعة الأحداث غير المُعدّة في الأفلام الوثائقية توحي بأن هذه الأحداث لها وجود مستقل عن السينما، وهذا ما يعطيها أصالتها .

2. تُعتبر الأفلام الوثائقية تقليديا أفلاما غير روائية، وبعبارة أخرى لا بد من تمييزها بحدّة عن الأفلام الروائية، فالعالم المصوَّر في الفيلم الوثائقي حقيقي وليس خياليا .

3. يُفترض في كثير من الأحيان أن صانع الفيلم الوثائقي لا يقوم سوى بمراقبة الأحداث الحقيقية وصنع سجل موضوعي لها .

كما تُحدَّد خمس فئات (صيغ) لدراسة الأفلام الوثائقية التسجيلية، وذلك انطلاقا من:

1. الفيلم الوثائقي ذو الصيغة التفسيرية: وهو فيلم يقوم بالوصف والتثقيف، أو يقدّم مقولة معينة، فمثلا قد يمتدح مجموعة من القيم الشائعة أو أسلوب حياة معين، وهذا النوع من الأفلام أكثر شيوعا في

الأفلام التلفزيونية، حيث ينقل الصوت المضاف معلومات تجريدية وتأثيرا جماليا للفيلم الوثائقي التفسيري، ومن ثم الإيحاء بالموضوعية وبنقل مباشر وشفاف لموضوع الفيلم. ومن رواد هذا الاتجاه: ألبرتو كفالكانتي، جون غريرسون، هاري وات، بازل رايت .

2. الفيلم الوثائقي بصيغة المراقبة: وهو أن يسجّل المخرج، دون تطفّل، ما يفعله الناس حين لا يخاطبون آلة التصوير مخاطبة صريحة، كما لا يوجد في هذا النوع الوثائقي تعليقٌ بصوت سلطوي مجهول المصدر، ولا عناوين ضمن الفيلم ولا مقابلات، فالتركيز يكون منصبا على تقديم شريحة من الحياة، أو عرض مباشر للأحداث المصوَّرة، فمخرج هذا الفيلم يهدف إلى مجرد مراقبة الأحداث أثناء حدوثها. أما من ناحية الأسلوب الفني فيعتمد على استعمال اللقطات الطويلة زمنيا، ومن أهم الأعمال رواجا فيلم "High School"(المدرسة الثانوية) سنة 1968 للمخرج "فريدريك وايزمان"، فهذا الفيلم لا توجد به أحداث درامية، وإنما يسجّل أحداثا يومية من فصول مختلفة أثناء الدراسة .

3. الفيلم الوثائقي ذو الصيغة التفاعلية: يجعل هذا النوع من الأفلام المخرج بارزا للعيان، فيتفاعل مع الناس ومع الأحداث التي يتم تصويرها، وقد يكون مخرج هذا النوع من الأفلام شخصا رئيسيا في الفيلم، ويوجّه أسئلة للذين يجري المقابلات معهم مباشرة، ومن هنا يشارك كلٌّ من المخرج والشخص الذي تُجرى معه المقابلة في الحدث، فيستطيع المشاهد أن يراهما يتفاعلان أحدهما مع الآخر، بينما قد يبقى صانع الفيلم خارج الشاشة ولا يمكن رؤيته، فقد تُسمع أسئلته وقد لا تُسمع. ومن أعمال هذا النوع: أفلام المخرج الأمريكي مايكل مور .

4. الفيلم الوثائقي ذو الصيغة الانعكاسية: يركّز هذا النوع من الأفلام على كيفية تصوير الأشخاص والأحداث، فتصبح خصائص الفيلم وعملية صنعه هي موضع تركيز الانتباه الرئيسي، بينما يمضي الفيلم الوثائقي الانعكاسي أبعد من الفيلم التفاعلي في جعل المشاهد يدرك جميع المراحل التي ينطوي عليها صنع الفيلم الوثائقي. ومن أشهر أمثلة هذا النوع فيلم "الرجل والكاميرا" للمخرج السوفياتي دزيغا فيرتوف، إذ

يعرض مشاهد من الحياة اليومية التي تشكّل في محصلتها يوم العمل، من وقت الاستيقاظ من النوم إلى الذهاب إلى العمل ثم نشاطات وقت الفراغ، بينما يسعى فيرتوف إلى تحويل الأحداث إلى أساليب فيلمية معينة، فهو لا يعرض الحياة اليومية كما هي معروفة، وإنما يعرضها انطلاقا من كيفية تصويرها أيضا .

5. الفيلم الوثائقي ذو الصيغة الأدائية: يعتمد هذا النوع من الأفلام على تصوير العالم تصويرا غير مباشر، فلا يُصوِّر العالم بالشكل نفسه على غرار الأنواع الوثائقية الأخرى، بل يهدف إلى تقديم موضوعه بأسلوب ذاتي تعبيري محدد الأسلوب، ومثير للعاطفة ومليء بالمشاعر، فمخرجو هذا النوع يسعون إلى جعل المشاهد يختبر الأحداث ويشعر بها، بدلا من الاكتفاء بمشاهدتها عن بُعد فقط، ومن أعمال هذا النوع أعمال المخرج الأمريكي إيرول موريس .

المكتبة البيبليوغرافية:

* ويليام جي كوستانزو: السينما العالمية من منظور الأنواع السينمائية.

*باري كيث جرانت، موسوعة السينما، تر :أحمد يوسف، ج1، ج2 ، ج3.

*ديفيد روبنسون: تاريخ السينما العالمية 1980/1895، ترجمة: إبراهيم قنديل.